■ الباب الأول ■

خلاصة الخلاصة حول نظام الوزارة

تمهيد - الوزارة العربية في الشرق
الإسلامى: قبيل عصر الرسول ﷺ
حتى القرن الخامس الهجرى

تمهيد : (الدوافع لكتابة هذا الباب)

لقد آثرت وأنا أحاول دراسة شخصية الوزير «نظام الملك» أن أغتنم هذه الفرصة فأمهد لها بخلاصة ضافية عن نشأة الوزارة وتطورها فى دولة الخلفاء حتى عصر «النظام»، بل وجدت ذلك لزامًا علىّ جديرًا بدراستى حيث رأيت غلو الدارسين للنظم الإدارية فى الإسلام بأنها مستقاة من منابع أجنبية ليس للعرب فضل فيها. فهى إمّا شرقية مستمدة من الفرس أو الهنود أو منهما معًا وإمّا غربية مقتبسة من اليونان أو الرومان أو من هؤلاء وأولئك جميعًا.

وقد انتهيت من ذلك كله إلى نتيجة وإن كانت ـ كما يبدو ـ بديهية، فقد أدى بى البحث إلى أن نظام الوزارة فى الإسلام لم يكن ساسانيّا بالمعنى الذى تخيله أولئك الدارسون كما لم يكن رومانيّا كما تصوره الآخرون، وإنما هو ظاهرة حضارية تعاونت على إيجادها عوامل اجتماعية من ثقافة وسياسة ودين طبقًا لناموس الطبيعة المتطورة وتحقيقًا لنتيجة التفاعل بين الإنسان والزمان والمكان.. كما توصلت إلى أنه فى عهد «نظام الملك» قد بلغ الذروة من ناحية مراسيم الوزير وتحديد اختصاصاته والاعتراف بأهمية منصبه وأثره فى تقدم الدولة ومعرفة الأعباء الملقاة على عاتقه سواء ما يتصل بعلاقته مع رئيسه أو مرءوسيه.

وسيكون حديثنا بالطبع قاصرًا على الناحية الحضارية من الوزارة؛ لتفسير نشأتها وتطورها التاريخى ثم منزلتها، ووظائفها. أمّا الناحية التشريعية من حيث

وجوبها أو جوازها وموقف المشرّع من الوزير إذا قصرّ فى أداء مهمته ومتى يلزم عزله أو نقله وأمثال ذلك، فإنها من الموضوعات الفقهية فى كتب الأحكام السلطانية.

إن الحديث عن تاريخ ـ الوزارة ـ لغةً ومنصبًا عند العرب قبل الإسلام وبعد ظهوره حتى نهاية العصر العباسى، طويل يستوعب كتابًا بأبواب وفصول، خصوصًا بعد ارتباطها بالخلافة التى انقسمت إلى ثلاث دول:

الأولى: العباسية فى بغداد، ثم الأموية فى الأندلس، والفاطمية فى القاهرة.. والتى شارك فى استخدامها: السلاطين والملوك والأمراء. لذلك فضلت تقديم خلاصة الخلاصة إلى القارئ من الجزء الأول الخاص بدراسة هذا النظام وقد قسّمته إلى ثلاثة فصول، والاكتفاء بالجزء الثانى الذى يختص بسيرة «نظام الملك» وزير السلاجقة الأوائل.

ومن الله التوفيق، وهو حسبى ونعم الوكيل.

* * *

● الفصل الأول

الوزارة فى اللغة العربية

- ورودها فى القرآن والحديث.
- وفى مؤتمر سقيفة بنى ساعدة.
- وفى عصر الخلفاء الراشدين.
- وفى أواخر العصر الأموى.
- وفى المعاجم اللغوية.

توطئة : (الدوافع لكتابة هذا الباب)

لم يكن هذا اللفظ بالمستغرب على آذان العرب حين سمعوه على لسان الرسول فى القرآن تارة وفى الحديث أخرى، ولو كان غريبًا عليهم لما جاء فيهما، ولما استعملوه فى حوارهم السياسى فى سقيفة بنى ساعدة بعد وفاة الرسول مباشرة، وليست هذه المواضع الثلاثة بخافية على الدراسين ولكننا نجد من مستلزمات البحث عرضها بإيجاز؛ لأنها الوثائق التاريخية التى لا تقبل الجدل والشك فى فهم العرب لهذا اللفظ واستعماله فى معناه الوظيفى فى الحكم على معنى القيادة والزعامة منذ وقت مبكّر.

أ) ورودها فى القرآن :

لقد كان هارون وزيرًا لموسى كما أخبر القرآن عنه فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا﴾(١).

فكانت هذه الآية جوابًا على سؤال موسى فى قوله: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾(٢).

وقد أجمع المفسرون على أن معنى الآية دعاء موسى ربه بالسماح له لأن يتخذ من هارون وزيرًا له ليقوى به ظهره ومركزه الاجتماعى، وفى هذا المعنى تأكيد لحاجة شعر بها العرب آنذاك، وتنبيه على ضرورة دنيوية لا يستغنى عنها

(١) سورة الفرقان ـ الآية ٣٥.

(٢) سورة طه ـ الآيات ٢٩ ـ ٣٣.

الملوك وإن علموا الكثير من أمورها فإن موسى بن عمران عدّه القرآن نبيًا مرسلاً ووصفه كليمًا لله، ومع ذلك فقد دعى ربه أن يجعل له وزيرًا من أهله ليشاركه فى إدارة أعماله وقد حقق الله له ما تمناه.

ب) وفى الحديث :

وقد روى عن الرسول ﷺ بهذا الصدد حديثان قال فى أحدهما: إن لى وزيرين فى السماء ووزيرين فى الأرض باللذان فى السماء جبريل وميكائيل. . واللذان فى الأرض هما أبو بكر وعمر[1] ثم يرد تأييدٌ لذلك يدعّم صحة هذا الخبر وصدق نسبته للرسول على لسان (زيد بن على) حين طلب إليه جماعة من الغلاة أن يلعن الخليفتين كشرط للمبايعة فقال: والله ما أكتب لألعن وزيرى جدى، فرفضوه فسموا بالرافضة[2].

وقال فى ثانى الحديثين وقد اسندوه إلى عائشة فورد بصورة مختلفة، ولكنه واحد من غرضه ومؤداه. . قالت: قال رسول الله: «إذا أراد الله بالأمير خيرًا جعل له وزير صدق إن نسى ذكّره، وإن ذكر أعانه، وإن أراد غير ذلك جعل له وزير سوء إن نسى لم يذكّره وإن ذكره لم يعنه»[3] وفى عهد الرسول ﷺ ما أثر عن ـ زيد بن ثابت ـ أنه قال: «نحن أنصار الله ووزراء رسوله ردًا على خطيب من تميم»[4].

ج) وفى مؤتمر السقيفة :

وكان قد اجتمع كبار المهاجرين والأنصار يتداولون الرأى فيمن يستخلف الحكم بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام، فقال سعد بن عبادة ـ زعيم الأنصار: «الإمامة فينا وفيكم، منا أمير ومنكم أمير». فقال أبو بكر زعيم

---

(١) النورى: تهذيب الأسماء واللغات جـ ٢ ص ١٨٨، وحسن المحاضرة ج٢ ص ١٤٢.

(٢) عبد الحى الكتانى ـ التراتيب الإدارية ج١ ص ١٧.

(٢) ابن الأثير: النهاية ص ٢٠٧، ٢٠٨.

(٤) الطبرى ج ٣ . ١١٦.

قريش: «نحن عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والإمامة فى قريش دون غيرها ونحن الأمراء وأنتم الوزراء»[1]، وبويع أبو بكر خليفة على المسلمين.

د) وفى عهد الخلفاء الراشدين :

وجاء عهد الخليفة الثانى عمر وقام بأعمال جسام فى التنظيمات الإدارية، ومما حكى عنه بصدد موضوعنا أنه كتب إلى أهل الكوفة: «أنى بعثت إليكم عمّار بن ياسر أميراً وبعبد الله بن مسعود معلمًا ووزيراً وآثرتكم به على نفسى فخذوا عنه»، فقدم الكوفة وابتنى داراً إلى جانب المسجد..

وفى عهد الإمام على[2] كتب إلى واليه بمصر ـ مالك الأشتر النخعى: «أن شر وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيراً»، كما روى عنه أنه حينما طلب إليه المبايعة بعد مقتل عثمان أنه قال: «التمسوا غيرى فأكون لكم وزيراً خيرٌ من أن أكون أميراً»[3].

هـ) وفى أواخر العهد الأموى :

ولعل آخر نص نتلقاه فى استعمال هذا اللفظ وشيوع معناه فى عهد الدولة الأموية كان عند بداية قيام الدولة العباسية فقد روى المسعودى عن المنقرى أنه قال: «سئل بعض شيوخ بنى أمية عقب زوال الملك عنهم: ما كان سبب زوال ملككم/ فقال: إننا انشغلنا بلذاتنا عن تفقّد ما كان تفقده رعيتنا فيئسوا من إنصافنا وتمنوا الراحة منا، وتحومل على أهل خراجنا فتخلوا عنا وخرجت ضياعنا فخلت بيوت أموالنا، ووثقنا بوزرائنا فآثروا مُرافقيهم على منافعنا وأمضوا أموراً أخفوا علمها عنّا...»[4].

و) وأخيراً فى المعاجم اللغوية :

ثم جاءت القراميس العربية شارحة هذا اللفظ مفصّلة معانيه ولعل فى إيجاز

(١) نشوان الحميرى ـ الحور العين ص ٢١٢، وابن الأثير ـ النهاية ج٤ ص ٢٠٧.
(٢) طبقات ابن سعد ـ مجلد ٢ قسم ٢ ص ١١٧.
(٣) ابن أبى الحديد ـ شرح نهج البلاغة ج١ ص١٥٦، ١٣٠، ١٦٠، ومحمد عبده ـ شرح النهج ج٣ ص٩٢.
(٤) المسعودى ـ مروج الذهب جـ ٢ قسم ٢ ص ١١٧.

تلك المعانى التى فصّلتها كبار المعاجم اللغوية من الفائدة ـ التى ينبغى ألاّ نغفلها ـ لإيضاح الغرض الذى نقصده وتأييد الهدف الذى نرمى إليه.

فهذا ابن منظور فى لسانه يقول: «وأصل الوزر: الجبل المنيع، وكل ما التجأت إليه وتحصّنت به، فهو وزر. والوزر: الحمل الثقيل، والذنب لثقله، وجمعها أوزار ومنه أوزار الحرب»(١).

والوزير حباه الملك الذى يحمل ثقله ويعينه برأيه وقد استوزره وحالته الوزارة والوزارة بالكسر أعلى. ووازره على الأمر أعانه وقوّاه والأصل آزره. قال ابن سيده: «ومن هاهنا ذهب بعضهم إلى أن الواو فى وزير بدل من الهمزة، وفى التنزيل: ﴿ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴾(٢).

قال: الوزير الجبل الذى تعتصم به لينجى من الهلاك وكذلك وزير الخلافة معناه الذى يعتمد على رأيه فى أموره ويلتجئ إليه. وقيل لوزير السلطان: وزير لأنه يزر عن السلطان أثقال ما أسند إليه فى تدبير المملكة أى يحمل ذلك. الجوهرى: الوزير: الوزارة كالوكيل المتواكل لأنه يحمل عنه وزره أى ثقله، وقد استوزر فلان فهو يؤازر الأمير ويتوزر له.

وفى حديث السقيفة: «ونحن الأمراء وأنتم الوزراء» جمع وزير، وهو الذى يؤازره ويتحمل عنه حمله من الأثقال والذى يلتجئ الأمر إلى رأيه وبتدبيره فهو ملجأ ومفزع».

وفى معاجم اللغة: «وزرت الشىء أزره وزرًا» أى حملته، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾(٣).

وفى التهذيب: وأمّا الاتزار فهو من الوزر، ويقال: وازرنى فلان على الأمر وآزرنى والأول أفصح. وقال: أوزرت الرجل فهو مؤزر... جعلت له وزيرًا يأوى إليه. وآزرت من المؤازرة»(٤).

---

(١) أوزار الحرب: أثقالها من معدات وأدوات وتبعات.

(٢) سورة طه ـ الآيتان ٢٩، ٣٠.

(٣) سورة الأنعام ـ من الآية ١٦٤.

(٤) لسان العرب ـ مادة وزر ج٧ ص ١٤٦.

وقال الزبيدى فى تاج العروس على القاموس: «ومن المجاز: الوزير ـ كأمير ـ حباه الملك الذى يحمل ثقله عنه ويعينه برأيه، وكذلك وزير الخليفة معناه الذى يعتمد على رأيه فى أموره ويلتجئ إليه».

وقد قيل لوزير السلطان وزير: لأنه يزر عنه أثقال ما أسند إليه فى تدبير المملكة، أى يحمل ذلك.

قال الزمخشرى: «وزير الملك الذى يؤازره أعباء الملك أى تحامله، وليس من المؤازرة: المعاونة لأن واوها عن همزة وفعيل منها ـ أزير ـ وأوزره أوثقه وحباه. والوزير علم من الأعلام»[1] وفى نهاية ابن الأثير قال: «وفى حديث السقيفة.. نحن الأمراء وأنتم الوزراء: جمع وزير وهو الذى يؤازره فيحمل عنه ما حمل من الأثقال. والذى يلتجئ الأمير إلى رأيه وتدبيره فهو ملجأ ومفزع»[2].

*** نتائج وملاحظات:**

والذى يمكننا استنتاجه من النصوص السابقة شيئان مهمان فى موضوعنا هذا. أولهما: ما يتصل باشتقاق اللفظ وأصله. والثانى: بمعناه ودلالته.

أمّا الأول: فإن هذا المصطلح الحضارى عربى أصيل إذ جرت عادة مؤلفى المعاجم وقواميس اللغة أن يثبتوا عند شرح النصوص أنّ هذا للفظ معرّب أو أنه فارسى معرّب أو أنه دخيل. وقد يذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك فيقول: «إنه معرّب بلا خلاف». ومما يلفت النظر ويدعو إلى الانتباه ألّا نجد واحداً من هذه النقول جميعها من أشار إلى ذلك سوى الثعالبى، حيث قال: «وقيل هو فارسى معرّب وأصله من الَزوْر، وهو عندهم اسم للشدّة والقوة والمعنى فيه أن يشدّ صاحب الدولة ويقوّيه ويعينه على ما هو بصدده، وإلأظهر أنه من المساعدة والاعانة[3].

---

(١) تاج العروس فى شرح القاموس ـ مادة وزر ج٣ ص ٢٠٢..

(٢) ابن الأثير ـ النهاية جـ ٤ ص ٢٠٨..

(٣) الثعالبى هو أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل المتوفى سنة ٤٢٦هـ فى كتابه تحفة الوزراء ص٤١.

وثانى الشيئين: وهو لا يقل أهمية عن سابقه أن معنى الوزارة كما تفيده تلك النصوص إنما هو حمل الأعباء كافة عن الخليفة أو السلطان. وليست معاونته فيها كما ذهب ابن خلدون عند تفسيرها [1]، وذلك لأن الوزارة مشتقة إمّا:

١ ـ من الوَزر بالفتح والتحريك بمعنى الجبل وكل معقل يلجأ إليه وهو المعنى الحسي الأصل، ثم انتقل إلى معنى الملجأ والمعتصم ومنه الآية: ﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴾[2].

٢ ـ من الوزر بالكسر والتكين بمعنى الثقل والسلاح ثم تدرج إلى معنى الإثم والذنب لأنه حمل ثقيل، ومن الأول قوله ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[3].

ومن الثانى قولهم على المجازر «أوزار الحرب» أثقالها وآلاتها.. وأحدها الأزر وقيل لا واحد له.

٣ ـ من الأزر وهو الظهر ومنه انتقل المعنى إلى القوة والمساندة كما يقوّى الظهر الجسم ويسنده وعليه الآية: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴾[4].

ويرى كثير من المؤرخين أنها مأخوذة من الثانى، ومنهم عدا من سبق ذكره «ابن خلكان»، وأن الوزارة مشتقة من الوزر كأن يحمل الثقل من السلطان[5].

ويعلّل الزمخشرى لذلك تعليلاً صرفيّا، لأن الصرف وإن اختص بالاشتقاق وتغاير الحروف فإنه يتصل بالمعنى كالنحو فيقول: «لأن واوها من همزة، وفعيل منها أزير ـ كما ذكرنا قبل قليل[6] على أننا وجدنا من يؤيد ابن خلدون فيما ذهب إليه وهو أبو إسحاق الزجّاج حيث يقول: «إن الوزير معناه، الذى يعتمد عليه الخليفة ويلجأ إلى رأيه»[7].

(١) ابن خلدون ـ المقدمة ص ١١٥.
(٢) سورة القيامة ـ الآية ١١.
(٣) سورة الأنعام ـ من الآية ١٦٤.
(٤) سورة طه ـ الآية ٣٢.
(٥) ابن خلكان ـ الوفيات ج١ ص٤٤٥.
(٦) الزمخشرى ـ أساس البلاغة ـ مادة وزر ص٤١٧.
(٧) ابن خلكان جـ ١ ص ٢٢٩

وقد فرّق بعضهم بين وزارتين فحدَّد الأولى: بالخلافة، والثانية: بالسلطنة، فخصّ وزير الخلافة بالاعتماد على رأيه واللجوء عند الحاجة إليه، ووزير السلطان بحمل الأثقال عنه بما أسند إليه من تدبير المملكة.

تلك هى الجذور الأصيلة التى اشتق منها لفظ (الوزارة) وهى موجودة فى العربية منذ فجر الإسلام وقبيل ظهوره بدليل استعماله فى القرآن والحديث، وليس هناك ما يبرر التردد فى أصلها أو إرجاعها إلى أصل فارسى وإن وجد ما يماثلها فى النطق أو يشاكلها فى الحروف. والوزارة كالخلافة مصطلح عربى أصيل فى مبناه ومعناه واستعماله.

لقد توصلت إلى هذا الرأى، ومن طريف الاتفاقات أن أجد من يؤيده فى ضحى الإسلام جـ ١ ص ١٧٢ لأحمد أمين إذ رأيته يؤيدنى على أن أصل الكلمة عربى. خلافًا لما ذهب إليه بعض المستشرقين بأن أصلها VICIIRA ومعناها الأمر والتقدير.

ومهما اختلفت مصادر الاشتقاق التى أنتقل منها ومال بعضهم إلى واحد منها وآخرون إلى غيره فإنى أفضل رأى القلة ومنهم «ابن خلدون» وإن جاز لنا تفضيل أحد الرأيين، لأن المعاونة هو المعنى الذى يوحيه هذا اللفظ عند إطلاقه مع اختلاف درجة الوزير. فالوزارة إن كانت من المؤازرة والمساندة للسلطان فى تدبير أموره، وإن كانت من الوزر فهى المشاركة له فى حمل أثقاله سواء أكان إثمًا أم عبئًا، وإن كانت من الأزر فهى المساهمة فى تقوية شأن السلطان وإعلاء كلمته.. وإن مفهوم الآية الكريمة التى هى الوثيقة الأولى فى معنى هذا اللفظ تؤيد هذا المعنى، كما تميل إلى أن الأزر الذى جاء متممًا للوزارة فى الآية نفسها إنما هو المصدر الصحيح لاشتقاقها.

والشىء الأخير الذى ينبغى أن نختتم به موضوع أصل اللفظ ومؤداه والذى أجد فيه سندًا لفكرة أصالته العربية، وما وصل إلينا من تاريخ الوزارة فى الدولة الساسانية، فإن الألفاظ التى استعملت ألقابًا للوزير هى:

١ ـ هزاربار: ومن قبل كانت هزاربانى بمعنى رئيس ألف رجل أيام الاكمينيين.

٢ ـ هزاريت دارن أرياتش ومعناها صاحب الأمر الكبير عند الأرمن.

٣ ـ بزرك فرما دار ـ مضافًا إليه ـ إيران وغير إيران. أحيانًا بمعنى الحاكم الكبير لإيران وغيرها.

٤ ـ ودر أندر زبد ـ بمعنى ناصح أو أمين البلاط أحيانًا أخرى [١]

وهى كما نرى لا تتفق مع لقب ـ وزير ـ العربية فى اللفظ والمعنى.. أمّا من ناحية اللفظ فلا موجب للتدليل على وضوحه. وأمّا من ناحية معناه فإنها بعيدة كل البعد عن تحمل المشاق والتبعية والمشاركة للخليفة، بحمل الأعباء والمسئولية، لأن معنى الرياسة والحكم ثم النصح التى تؤديها ألقاب «كبير الحكام» الساسانى لا يمكن أن تشتقها من لفظ وزير العربى.

وسنعالج هذه المسألة مرة ثانية عند الحديث عن منزلة هذا المَنْصب ورتبة الوزير، وثالثة خلال اختصاصاته لمعرفة الفروق الكبيرة من ناحية اللفظ والدرجة والوظيفة.

* * *

(١) كرستنسن ـ إيران فى عهد الساسانيين ـ ترجمة الدكتور يحيى الخشّاب والدكتور عبد الوهاب عزّام ص ١٠٠، ١٠١.